بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الرعد

﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١﴾

هذه فاتحة سورة الرعد المدنية.

و﴿الٓمٓرۚ﴾ هي من الحروف المقطَّعة، التي افتتحت بها بعض السور، وقد تحدَّثنا عنها سابقًا، ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾ أي: هذه السورة آيات بينات من الكتاب، وهو القرآن الكريم، ﴿وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾ كله يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ الذي لا شك فيه، ولا جدال حوله، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ من أهل مكة وغيرهم لا يثقون أنَّه أُنزِل إليك من ربك، ولذلك: فهم ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بنبوَّتك.

وبعد هذه المقدمة يسوق الله عز وجل الدلائل علىٰ قدرته، وعلىٰ ضرورة الإيمان به من العالم العلوي، فيقول:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

أي: هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ينبغي الإيمان به، والخضوع له، هو ﴿ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ كما ﴿تَرَوۡنَهَا﴾، وذلك دليل قدرته عز وجل ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ استواءً يليق بجلاله، من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل.

﴿وَ﴾ الله، الذي ﴿سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ بقدرته؛ لمنافع عباده، ومصالح بلاده، و﴿كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ عنده، وهو وقت انقضاء الدنيا بقيام الساعة، وذلك: دليل قدرته عز وجل.

وهو الذي ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمر ملكوته كله، بما فيه ومن فيه، وهو الذي ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ أي: يبيِّنها ويوضِّحها، ويرشد إليها، سواء كانت الآيات المنظورة، أو المسطورة.

وكل ذلك ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ أي: بالإيمان به، واليقين بالرجوع إليه ﴿تُوقِنُونَ﴾ فتعملون بموجب هذا الإيمان، وتستعدُّون لواجب هذا اللقاء.

ثم يسوق عز وجل أيضًا: دليلاً علىٰ قدرته، وضرورة الإيمان به مَن العالم السفلي، فيقول:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: ﴿وَهُوَ﴾ الله الذي ينبغي الإيمان به، والخضوع له، هو ﴿ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ طولًا وعرضًا.

﴿وَ﴾ هو الله الذي ﴿جَعَلَ فِيهَا﴾ أي: في الأرض، جبالًا ﴿رَوَٰسِىَ﴾ ثابتة في أماكنها ﴿وَأَنْهَـٰرًا﴾ تنتفعون بها، وخلق ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ أصنافًا، وأنواعًا، وألوانًا، وهو الله الذي ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: الأرض من كل زوجين اثنين السالب والموجب، والذكر والأنثىٰ إلىٰ غير ذلك.

وهو الله الذي ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يلبس النهار ظلمة الليل ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿لَـَٔايَـٰتٍ﴾ دالة علىٰ قدرة الله وعظمته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيهتدون.

كذلك: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَـٰوِرَٰتٌ وَجَنَّـٰتٌ مِّنْ أَعْنَـٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۖ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

أي: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ كذلك من دلائل قدرته: أنه توجد ﴿قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ في المكان، ولكنها مختلفات في المواصفات، فهذه سوداء، وهذه صفراء، وأرض رقيقة وأخرىٰ سميكة إلىٰ غير ذلك، وفي الأرض كذلك من دلائل قدرته ﴿جَنَّٰتٌ﴾ حدائق وبساتين ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ بعضها ﴿صِنْوَانٌ﴾ أي: لها فروع كثيرة وأصل واحد، وبعضها ﴿غَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: لا فروع لها، والكل مع اختلاف أنواعه ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ ومع ذلك فالطعم مختلف، واللون مختلف، والشكل مختلف، كما أننا ﴿نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ فهذا حلو، وهذا حامض.. إلخ.

حقًّا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ كله ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ دالة علىٰ قدرته سبحانه، وعظمته ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ هذه الدلائل؛ فيهتدون، فيؤمنون.

هذه كلها دلائل واضحة أمامهم علىٰ قدرة الله عز وجل، ومع ذلك: فلهم مواقف في غاية الغرابة والتعجُّب، ومن ذلك مثلًا: إنكارهم البعث.

يقول الله تعالىٰ:

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

يعني: ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ يا محمد من تكذيب الكفار لك، وعدم إيمانهم بقدرة الله عز وجل ﴿فَعَجَبٌ﴾ كل العجب ﴿قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ بعد الموت ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: بعث مرة أخرىٰ، وبذلك: فهم ينكرون البعث واليوم الآخر بما فيه من حساب وثواب وعقاب.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يكذِّبونك، وينكرون قدرة الله، ولا يؤمنون باليوم الآخر هم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ إذْ لو كانوا يؤمنون به لآمنوا باليوم الآخر.

﴿وَ﴾ هم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين توضع ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ وهي القيود ﴿فِيٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ هم ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ كذلك، و﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مقيمون لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها أبدًا.

ومن مواقفهم العجيبة أيضًا: أنهم يستعجلون العذاب استهزاءً، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾﴾

أي: هؤلاء المكذبون المعاندون من شدة كفرهم ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ وهي العقوبة، فقد قالوا: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] مثلًا.

وذلك طلبهم ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وهي العاقبة والنجاة من غضب الله، ولم يعتبروا بما نزل من العذاب بمن قبلهم، حيث إنه ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: سبقت ومضت ﴿مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ وهي العقوبات الشديدة، التي جعلت المكذبين قبلهم عبرة ومثلًا.

وعلىٰ كل حال فهم لا يعلمون، ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ ولذلك لم يوقع بهم العذاب سريعًا مع تكذيبهم.

ولكن في الوقت ذاته ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يفلت منه معاند، ولا ينجو من عذابه هارب.

ومن مواقف هؤلاء الكافرين العجيبة أيضاً: أنهم يطلبون منك آية، مع أن الآيات المنزلة عليك كثيرة، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

أي: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ تعنُّتًا وعنادًا ﴿لَوْلَآ﴾ أي: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ وعلامة تؤيد صدقه ﴿مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الذي يدَّعيه.

لا تهتم بما يقولون، وليست الآيات وفقًا لهواهم ﴿إِنَّمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿مُنذِرٌ﴾

لهم بالعذاب، ومخوِّف لهم منه، وناصح لهم بالهداية، ﴿وَ﴾ من قبلك كان ﴿لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ يهديهم، ومعه آية تخصه، وأنت معك الآيات والآيات، ولكنهم لا يهتدون..

ولم ينزِّل الله تعالىٰ عليهم آية مما اقترحوا، حيث إنهم اقترحوا للعناد وليس للاسترشاد وطلب الهداية، وإلَّا فإن الله قادر علىٰ إنزال ما اقترحوا بدلالة: كمال علمه سبحانه، وقدرته عز وجل، وشمول قضائه وقدره، حيث بيَّن ذلك قائلًا:

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾

يعني: هو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي لا يؤمنون به ﴿يَعْلَمُ﴾ وحده ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: من جميع الإناث، يعلم: عدده، ونوعه، وجنسه، وحاله، ووضعه، ومصيره بعد ذلك.. إلخ، ويعلم سبحانه وتعالىٰ كذلك ﴿مَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ ما تنقص الأرحام ﴿وَمَا تَزْدَادُ ۖ﴾ من هذا الحمل أو ذاك.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ﴾ سبحانه، من هذا وغيره ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ بتقدير دقيق، وعلم محيط، ومن الضروري أنه مَن كان كذلك: فهو يعلم الحق، ويهدي إليه.

فهل من مستجيب؟ وهو سبحانه أيضًا:

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾

أي: هو الله الذي لا يؤمنون به ﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ وهو كل ما غاب عن الخلق ﴿وَٱلشَّهَـٰدَةِ﴾ أي: يشاهدونه ويعرفونه كذلك، وهو سبحانه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأن، الجليل القدر، الذي لا يُماثله شيء، وهو أكبر وأعظم من كل شيء ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المترفِّع عن كل شيء.

و﴿سَوَآءٌ﴾ في علمه سبحانه ﴿مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ منكم ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ حيث إنه يسمعه، ولا يخفىٰ عليه منه شيء، فهو:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

﴿وَ﴾ سواء في علمه سبحانه ﴿مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ﴾ لا يراه أحد، ﴿وَسَارِبٌ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: ذاهب في طريقه جهارًا نهارًا.

ومن الضروري أنه مَن كان كذلك: فهو يعلم الحق، ويهدي إليه فهل من مستجيب؟

وهو سبحانه أيضًا يقول:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

أي: جعل الله لِمن أسرَّ القول ومَن جهر به، ومَن هو مستخفٍ بالليل، ومَن هو سارِبٌ بالنهار، جعل ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ أي: جماعات من الملائكة تتعاقب في حفظه ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من أمامه ﴿وَ﴾ حفظه ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾.

يعني: مهمَّتهم أنَّهم ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: يحفظونه بأمر الله حتىٰ يسلِّمونه للَّذي قدَّر الله له.

ولذلك فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ فيسلبهم نعمة، أو يُنْزِل بهم نقمة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟﴾ هم ﴿مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ بالمعصية، أو الطاعة.

كما أنه عز وجل ﴿إِذَآ أَرَادَ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾ نقمة، أو عذابًا يستحقونه ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ من أحد، أي: فلا يمنعه أحد ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ في هذه الحال ﴿مِن وَالٍ﴾ يتولَّى أمورهم، ويدفع عنهم ما قدَّر لهم. كما أنه سبحانه:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى﴾ الله، الذي لا تؤمنون به ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ في السماء، ﴿خَوْفًا﴾ أي: تخافون منه أي: يهلكهم ﴿وَطَمَعًا﴾ أي: تطمعون في نزول المطر

معه، ﴿وَ﴾ هو ـ كذلك ـ الذي ﴿يُنشِئُ﴾ أي: يخلق ﴿ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ أي: المحملة بالماء، تنتفعون به.

﴿وَ﴾ هو سبحانه الذي ﴿يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ﴾ كما يسبِّح كل شيء في الوجود بحمده سبحانه، ﴿وَ﴾ هو الذي يسبِّح ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ كذلك ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: هيبة منه، وإجلالًا وتعظيمًا له، ﴿وَ﴾ هو الذي ﴿يُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمع صاعقة ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ من خلقه انتقامًا منه، ﴿وَ﴾ مع كل هذه الأدلة على قدرته وعزته، وعلمه، وإحاطته بكل شيء: فـ ﴿هُم﴾ أي: هؤلاء الكفار ﴿يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ في وحدانيته، وقدرته..إلخ، ﴿وَ﴾ لا يعلمون أنه عز وجل ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ شديد الأخذ، شديد القوة، شديد الانتقام ممَّن كفر به وعانده وعصاه.

ولذلك، وإذا كان فيهم بقيَّة من عقل: فعليهم أن يعلموا أنه سبحانه:

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

يعني: ﴿لَهُۥ﴾ وحده فقط ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ أي: كلمة الحق، وهي (لا إله إلا الله) وهو وحده الذي يُدْعى، فيستجيب لمن دعاه.

﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: يدعونهم ﴿مِن دُونِهِۦ﴾، ويعبدونهم فلا ينفعونهم ولا يضرونهم، بل ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أبدًا ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ أي: فمه ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ﴾.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ آلهتهم التي يعبدونها ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: في ضياع.

وعلى هؤلاء الكفار ـ كما على أهل الدنيا كلها ـ أن يعلموا، كذلك: أنَّ سلطانه تعالى قهر كل شيء، وأنه سبحانه قد دان وسجد له كل شيء، حيث يقول تعالى مبيِّنًا ذلك:

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾

أي: ﴿وَلِلَّهِ﴾ سبحانه، الذي لا يؤمنون به ﴿يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سجود خضوع وتذلُّل ﴿طَوْعًا﴾ كالمؤمنين والملائكة، ﴿وَكَرْهًا﴾ سجود قهر لسننه

وقوانين كونه، كالمنافقين والكافرين ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ جميعًا مؤمنين وكافرين، وهذه آية من آيات الله، حيث تسجد معهم ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ أول النهار ﴿وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ آخر النهار، بل في كل وقت وحين.

أليس من الضروري أنه مَن كان كذلك: فهو يعلم الحق، ويهدي إليه؟ بلىٰ وألف بلىٰ، فهل من مستجيب؟

بعد أن قرَّر ربنا عز وجل: أن جميع الكائنات تنقاد له وتسجد وتخضع إجلالًا لعظمته، عاد إلىٰ الرد علىٰ المشركين، حيث يقول لحبيبه ﷺ:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

والمعنىٰ: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد واسألهم ﴿مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؟ ثم ﴿قُلْ﴾ مجيبًا عنهم بما يقرُّون به ويعرفونه ﴿ٱللَّهُ﴾ حيث لا جواب عندهم غير ذلك.

ثم ﴿قُلْ﴾ لهم بالرغم من علمكم بذلك، وإقراركم به في أنفسكم ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ أي: الله ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ تعبدونهم، وهم ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ وبالتالي: لا يملكون لكم ذلك، فأي ضلال هذا الذي أنتم عليه.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد مبكتًا ﴿هَلْ يَسْتَوِى﴾ عندكم ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ عن هداية الله، وهو الكافر، ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ المهتدي بهداية الله، وهو المؤمن؟ ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى﴾ عندكم ﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ الموقعة في التخبط والضلال، ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الهادي إلىٰ الطريق المستقيم؟

﴿أَمْ﴾ أنهم، أي: هؤلاء الكفار ﴿جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ وهؤلاء الشركاء ﴿خَلَقُوا۟﴾ خلقًا ﴿كَخَلْقِهِۦ﴾ سبحانه ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ فعبدوا شركاءهم نتيجة لذلك؛ لا هذا، ولا هذا، ولا ذاك.

وما دام الأمر كذلك يا محمد: ﴿قُلِ﴾ لهم ﴿ٱللَّهُ﴾ وحده ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ فاعبدوه، ووحِّدوه، وعظِّموه، ولا تشركوا معه أحدًا.

وحتىٰ تعبدوه، وتوحِّدوه، وتعظِّموه اسمعوا وافهموا هذه الأمثال للحق والباطل:

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

المثل الأول: للحق والباطل ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَآءً﴾ مطرًا ﴿فَسَالَتْ﴾ به ﴿أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ أي: كل واد بمقدار من هذا الماء، الذي قدَّره الله له، ﴿فَٱحْتَمَلَ﴾ هذا ﴿ٱلسَّيْلُ زَبَدًا﴾، وهو ما علىٰ وجه الماء من الفقاقيع الهوائية، والأشياء التافهة الطافية ﴿رَّابِيًا﴾ أي: عاليًا.

المثل الثاني: للحق والباطل ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: ما يوقد عليه النار من الذهب والفضة ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ صناعة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ﴾ منه، عليه أيضًا ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مثل زبد الماء.

فالماء، والذهب والفضة مثال الحق، والزبد في هذا وذاك مثال الباطل.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ﴾ مثالًا ﴿وَٱلْبَٰطِلَ﴾ كذلك.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من هذا وذاك ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ يُرمىٰ به، ولا يُنتفع منه، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من الماء والذهب والفضة ﴿فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولا يضيع، ولا يُرمىٰ به.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ ويوضِّحها للحق والباطل، فمن يفهمها وينتفع بها: فهم المؤمنون الذين يستجيبون لربهم، ومَن لا يفهمها أو لا ينتفع بها: فهم الكافرون الذين لا يستجيبون لربهم. وعلىٰ هذا يقول الله تعالىٰ:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾

يعني: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ وانقادوا لأمره، وأطاعوا رسوله، وأفادوا من ضربه الأمثال ﴿ٱلْحُسْنَىٰ ۚ﴾ وهي: الجنة؛ جزاءً طيبًا لهم.

﴿وَ﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ ولم ينقادوا لأمره، ولم يطيعوا رسوله، ولم يفيدوا من ضربه الأمثال، فهؤلاء ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يملكونه، وتحت أيديهم ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ يوم القيامة ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ﴾ من هَوْل ما يرونه من العذاب.

حيث إن ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الذين كفروا ﴿لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ علىٰ كل ما عملوه، لا يغفر لهم منه شيء، وليس هذا فقط، بل ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ سكنهم، ومقرُّ إقامتهم الدائمة ﴿جَهَنَّمُ﴾، حقًّا ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ مهادهم، والمكان مكانهم.

لقد ضرب الله تعالىٰ الأمثال التي توضِّح الحق من الباطل، وتبيِّن الهدىٰ من الضلال، فمن لا يهتدي بها ولا يتبع هداها: فهو أعمىٰ عن الحق بعيد عن الهداية، فهل يستوي هو ومن يؤمن بها، ويهتدي؟ ولذلك يقول ربنا عز وجل منكرًا علىٰ مَن لم يهتد بها:

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

يعني: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ﴾ أن الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وهو القرآن هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الواجب الاتباع، والذي لا شك فيه ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ﴾ عن معرفة ذلك، وإذا عرف لا يتبعه؟ كلا، لا يستوي هذا مع ذاك.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ ويستفيد، ويتَّعظ، ويتبَّع ما نزل: هم ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أصحاب القلوب الطاهرة، والنفوس الزكية فقط.

ومن أوصاف هؤلاء الذين هم أنهم:

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن

﴿يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾

هذه أوصاف ثمانية وصف الله بها ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩] أصحاب العقول الكاملة:

الصفة الأولى: الوفاء بالعهد ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ من أداء الفرائض واجتناب المحارم ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ وهو العهد، أيًّا كان مع الله، أو مع الناس.

الصفة الثانية: صلة ما أمر الله به أن يوصل ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ من صلة الأرحام، والإحسان إليهم، وإلىٰ الفقراء، ونصرة المؤمنين، والدفاع عنهم.. إلخ.

الصفة الثالثة: خشية الله ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: يخافونه، فلا يعصونه، بل ينفِّذون أوامره.

الصفة الرابعة: خوف سوء الحساب ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ في يوم القيامة، حيث يدفعهم ذلك إلىٰ محاسبة أنفسهم وتزكيتها أولًا بأول.

الصفة الخامسة: الصبر ابتغاء مرضاة الله ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: صبروا علىٰ الطاعات، وصبروا عن المعاصي، وصبروا في المحن والابتلاءات، وصبروا في ميادين الجهاد، وكل ذلك رجاء رضوان الله فقط.

الصفة السادسة: إقامة الصلاة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدُّوها علىٰ وجهها الصحيح، وداوموا علىٰ ذلك.

الصفة السابعة: الإنفاق سرًّا وعلانية في سبيل الله ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ في الطاعة، ولوجه الله، وابتغاء رضوانه.

الصفة الثامنة: يقاومون السيء بالحسن ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون السيئة من القول والفعل بالحسنة، كذلك من قولهم وفعلهم.

يقول ربنا تبارك وتعالىٰ: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: مَن تحلىٰ بهذه الصفات فله العاقبة الحسنى التي تنتظر المحسنين من أهل الدنيا. **وهي:**

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

أي: عاقبتهم، ونتيجة صلاحهم ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: جنات إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ لا يخرجون منها، ولا يُبعدون عنها، هم ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ أي: آمن واستقام ﴿مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ﴾.

هذا، ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم﴾ أول دخولهم، وفي كل وقت كذلك ﴿مِّن كُلِّ بَابٍ﴾، يقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ دائم من الله تعالىٰ ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ﴾ أي: بسبب صبركم في الدنيا ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: أنعِم بها من عاقبة طيبة كانت لكم بعد الدنيا، وهي الجنة.

هذا جزاء ﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩] الذين يعلمون أنَّ ما نزل من الله هو الحق، ويعملون به!!

وأما الأعمى عن ذلك، أو المتعامي عنه؛ فيقول الله تعالىٰ بخصوصه:

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

وهذه أوصاف ثلاثة وصف الله تعالىٰ بها مَن لا يؤمنون، ولا يهتدون بما جاء من عند الله، وكل واحدة أسوأ من الأخرىٰ:

الصفة الأولى: عدم الوفاء بالعهد ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي: لا يؤمنون، ولا يؤدُّون فرائض الله، ولا يجتنبون محارمه.

الصفة الثانية: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإحسان إلىٰ الأرحام، ونُصرة المؤمنين، وغير ذلك.

الصفة الثالثة: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الإفساد في الأرض، وذلك بأي صورة من صور الفساد، كالكفر، والظلم، والمعصية.. إلخ.

يقول تعالىٰ عن هؤلاء:

أولًا: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ وهي الطرد من رحمة الله

ثانيًا: ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ وهي الإقامة في جهنم.

وهنا قد يَرِد على الذهن سؤال وهو: هؤلاء الكفار، والعصاة، الذين ﴿لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ نراهم وقد فتح الله عليهم في الدنيا أبواب النعيم وملذات الحياة.

فكيف يكون ذلك؟ والجواب:

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

يعني: مرد ذلك، وحكمته عند الله، فهو سبحانه الذي ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيقه على مَن يشاء من عباده، دون رادّ لمشيئته، ولا معقِّب لحكمه سبحانه.

كذلك فإن من حكمة الله في هذا ما يقوله سبحانه: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ أي: فقط، وعملوا لها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ أي: جزاء أعمالهم هذه ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]

ثم يقول الله تعالى عنهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦].

ولذلك يقول ربنا هنا: ﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: فرح بطر وطغيان، لا فَرَح شُكْر لله، وعرفان بالفضل.

وعلى كل حال، فما هم فيه حقير تافه بالنسبة لما عند الله لعباده الصالحين في الآخرة ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ﴾ بكل ما فيها ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: بالنسبة لها ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي: شيء قليل يتمتع به صاحبه سريعًا، ثم يذهب ويزول.

ثم يحكي الله تعالى بعض أقوال الكافرين، وصور تعنُّتهم، فيقول:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يقترح الكافرون، من أهل مكة، عليك نزول آية: كالعصا واليد لموسىٰ، والناقة لصالح؛ حتىٰ يؤمنوا.

﴿قُلْ﴾ لهم إنَّ الآيات لا تفيد شيئًا مَن أراد الله إضلاله؛ حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ ورجع بقلبه إليه، ولم يعاند، كما تعاندون.

ثم بيَّن ربنا مَن ينيب إليه، ويستحق هدايته بقوله تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

وصفهم رب العزة بثلاث صفات:

الصفة الأولىٰ: الإيمان ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله ورسوله، واتبعوا وحيه، والتزموا بشرعه، وهذه رأس كل خير.

الصفة الثانية: اطمئنان قلوبهم بذكر الله، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: عدم قلقها، أو اضطرابها في المكاره والأزمات؛ لأُنْسها بالله، واعتمادها عليه، ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ﴾ وتهدأ قلوب المؤمنين.

الصفة الثالثة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أتبعوا إيمانهم بالعمل الصالح، وهو كل ما صلحت به البلاد، وسعدت به العباد.

هؤلاء ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي: أصابوا خيرًا، ونالوا طيبًا ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: مرجع حسن لهم كذلك.

وبعد أن بيَّن ربنا عز وجل أنه ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وأن العبرة ليست بالآيات، بل بالهداية، يقول الله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

أي: كما أرسلنا الأنبياء لأممهم قبلك يا محمد ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ ختامًا للرسل ﴿فِىٓ أُمَّةٍ﴾ هي آخر الأمم ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: سبقت في الزمن ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾

كثيرة، وقد أرسلناك ﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ﴾ الكتاب ﴿ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن، فتبلغهم بذلك رسالة الله، وقد بلَّغتهم هذه الرسالة، وأدّيت لهم هذه الأمانة ﴿وَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ حيث إنَّهم لمَّا قيل لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ أي: به، ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

﴿قُلْ﴾ لهم: هذا الرحمٰن، الذي تكفرون به ﴿هُوَ رَبِّى﴾ الذي أومن به وأسجد له وأدعو إليه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ربًا خالقًا رازقًا ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في كل أموري ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: الرجوع للحساب، والثواب والعقاب.

ولمَّا قال لهم النبي ﷺ ذلك قالوا له: إن كنت نبيًّا فأبعد عنا جبال مكة، واجعل لنا فيها أنهارًا لنزرع ما نشاء، وابعث ـ كذلك ـ لنا آباءنا الذين ماتوا، بحيث يقولون لنا إنك نبي، وبهذا: نؤمن لك، ولمَّا قالوا له ذلك رد الله عليهم بقوله:

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ الله تعالىٰ أنزل ﴿قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ كما يقترحون ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ ليؤمنوا: لمَا آمنوا.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ في إيمانهم وعدم إيمانهم، ولا تعلُّق له بإجابة مقترحاتهم، فهو سبحانه يهدي مَن يشاء، ويضل مَن يشاء.

ولذلك: فلا ينبغي أن يستغرب المؤمنون من عدم إيمان الكافرين، حيث طلب بعض المسلمين تحقيق هذه الآيات ليؤمن الكافرون.

ومن هنا قال تعالىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَايْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من إيمان جميع الخلق، ويعلموا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك.

ثم يقول: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ من كفرهم وظلمهم

﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: داهية ومصيبة ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ هذه المصيبة ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ ليتَّعظوا ويعتبروا ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ وهو يوم القيامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾.

وبعد هذا البيان يقول الله تعالىٰ لحبيبه ﷺ:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾

يعني: إن كذَّبوك، واستهزؤوا بك، فلست وحدك فـ ﴿لَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ ولك فيهم الأسوة والقدوة أي: لا تهتم بهذا، وأما أمم هؤلاء الرسل ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ منهم، وأجَّلتُ عقابهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ بعقابي، وياله من عقاب ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ كان أليمًا شديدًا.

والمكذبون من أمتك مصيرهم: مصير هؤلاء.

وبعد هذا يذكر سبحانه سُنَّته فيمن يريد إضلاله وعدم هدايته، فيقول جل وعلا:

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾

أي: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ رقيب ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ من خير أو شر، وهو الله سبحانه وتعالىٰ، كالأصنام التي يعبدونها؛ حيث إنهم ﴿جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ من هذه الأصنام، ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي: أعلِمونا بهذه الأصنام التي أشركتموها مع الله، وقولوا لنا: ماذا تفعل من النفع والضر؟

ثم قل لهم: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ وهو الله وتُعْلِمونه ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ﴾ من هؤلاء الشركاء ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كلها، وهي لا وجود لها؟ وقل لهم ـ كذلك ـ: ﴿أَمْ﴾ تسمُّونهم ﴿بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ فقط، يعني أسماء في الخيال لهذه الأصنام، لا وجود لها في الحقيقة؟ إنه لا هذا، ولا ذاك.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ وحبب إليهم كيدهم للإسلام ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: صُدُّوا عن الهداية، وهي سبيل الله فقط.

والحقيقة أنه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ غير الله تعالىٰ.

ولذلك: فمن أراد الهداية فليطلبها من الله، فهو الهادي وحده إلىٰ سواء السبيل.

هؤلاء الذين يعبدون الأصنام، وزيَّن لهم كيدهم للإسلام، وصدُّوا عن سبيل الله:

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

أي: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ بالقتل والأسر، وأنواع البلاء والمحن، ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ الذي ينتظرهم، وصائرون إليه، وواقع بهم ﴿أَشَقُّ ۖ﴾ من عذاب الدنيا وأصعب.

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: من عذابه في الدنيا، أو في الآخرة ﴿مِن وَاقٍ﴾ يَقِيهم منه، ويُبْعِدْهم عنه.

ثم تكون البشارة لأهل الإيمان، الذين اتقوا ربهم، والتخويف لأهل الكفر الذين عصوا ربهم بقوله سبحانه:

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

أي: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ صفة الجنة ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ﴾ بها ﴿ٱلْمُتَّقُونَ ۚ﴾ فيما نتلوه عليكم من الكتاب العزيز، وما فيه من أخبار الصالحين أنها ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت غرفها ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ﴾، كما أنها ﴿أُكُلُهَا﴾ أي: ما يؤكل منها وفيها من مطعومات ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع أبدًا ﴿وَظِلُّهَا﴾ لا يُنْسخ، ولا يفنىٰ أبدًا.

﴿تِلْكَ﴾ الجنة هي ﴿عُقْبَى﴾ أي: عاقبة، وجزاء ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ﴾ ربهم بالإيمان، وعمل الطاعات، والبُعد عن المعاصي.

﴿وَّ﴾ أما ﴿عُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ومصيرهم، ومقر إقامتهم، فهي ﴿ٱلنَّارُ﴾ لا يخرجون منها فيهربون، ولا يموتون فيها فيستريحون.

وإذا كان هذا الكلام عن المؤمنين والمشركين، فإن هناك فريقًا آخر من الناس، يقول عنهم ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

يعني: وأهل الكتاب ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كالتوراة والإنجيل منهم فريق ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ﴾ من القرآن؛ لموافقته ما عندهم في كتبهم.

ولكن ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: من أحزابهم وفِرَقهم التي تعاديك وتعادي دعوتك ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ﴾ كإنكارهم نبوتك، ونحن نُعْلِمك بهؤلاء وهؤلاء.

﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ﴾ فيما أُنزل إليّ ﴿أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾ وحده ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ﴾ غيره، ممَّا لا ينفع ولا يضر، و﴿إِلَيْهِ﴾ وحده، وإلىٰ دينه وشريعته ﴿أَدْعُوا۟﴾ الدنيا كلها ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: مرجعي في يوم القيامة.

ثم يقول ربنا عز وجل:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

أي: ﴿وَ﴾ كما أنزلنا الكتب السابقة علىٰ الأنبياء السابقين بلغات أقوامهم ﴿كَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: هذا الكتاب عليك ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ﴾ بلغة العرب، لتحكم بين الناس كلهم بما جاء فيه، حتىٰ ولو خالفت ما في الكتب السابقة.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ ولم تحكم بما جاء في القرآن بين الناس ﴿بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ الثابت، وضرورة الحكم به ﴿مَا لَكَ﴾ أي: ليس لك في هذه الحالة ﴿مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ ينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يدفع عنك ما يحل بك.

وفي هذا تهديد لكل مَن لا يعمل بكتاب الله، ويتَّبع ما جاء في غيره.

ولمَّا عاب أهل الضلال النبي ﷺ بزواجه، وأنه لو كان نبيًّا لتفرَّغ لعبادة ربه، وترك الدنيا، ردَّ الله عليهم بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

أي: لا تهتم بأقوالهم هذه يا محمد، فلست بدعًا من الرسل، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ يجري عليك ما جرىٰ عليهم؛ حيث ﴿جَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ لأنهم بشر وقدوة، وأنت كذلك جعلنا لك أزواجًا وذرية.

ثم إنهم كما عابوا عليك ذلك وليس لهم، وطلبوا منك أن تأتي بما اقترحوا من آيات وليس لهم أيضًا:

إذْ أنه ﴿مَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ حتىٰ ولا أنت ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ يطلبها قومه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ في ذلك.

ولما كان ﷺ يخوِّفهم بعذاب الله: استعجلوه إتيان هذا العذاب، ليقضي عليهم، إن كان صادقًا فيما يدَّعيه، ردَّ عليهم المولى بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي: نهاية ﴿كِتَابٌ﴾ مكتوب فيه تلك النهاية، لا يُزاد عليه، ولا يُنقص منه، وليست بطلبكم أيها الكافرون.

وكذلك: لمَّا قالوا إن محمدًا يأمر أصحابه اليوم، ثم يأمرهم غدًا بخلافه، كما حدث في استقبال القبلة مثلًا، ولو كان نبيًّا ما فعل ذلك، رد عليهم المولىٰ بقوله:

﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

أي: ﴿يَمْحُو اللَّهُ﴾ بالنسخ ﴿مَا يَشَاءُ﴾ من الأحكام ﴿وَيُثْبِتُ ۖ﴾ فيُبقيها كما هي؛ لِعِلَلَ وحِكَم، قد تُعلَم وقد لا تُعلَم، فمردُّ الأمر في هذا وذاك إلىٰ الله وحده، وليس إلىٰ محمد ﷺ، ولا إلىٰ غيره.

كما أن ﴿وَعِندَهُ﴾ أي: المولى ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي: أصل المكتوبات كلها، وذلك في اللوح المحفوظ.

ثم يواسي الله نبيَّه والمؤمنين معه، ويَشُدُّ من عزائمهم، بقوله:

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ في حياتك ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ به، من العذاب ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل أن ترىٰ ذلك فيهم: فلا يَهُمَّنَّك إعراضُهم عنك، وعدم إيمانهم بك، وتصديقهم لك، ﴿فَإِنَّمَا﴾ فقط ﴿عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لرسالتنا ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ والجزاء لهم علىٰ مواقفهم هذه. إنهم ليسوا عقلاء:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ عموا ﴿وَلَمْ يَرَوْا﴾ بعيونهم ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضهم؛ أرض الكفر ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ من جوانبها، بما يفتح المسلمون منها، فتزيد أرض الإيمان، وتنقص أرض الكفر؟

﴿وَٱللَّهُ﴾ عز وجل هو الذي ﴿يَحْكُمُ﴾ بذلك، ويقضي به، وينصر دينه و ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ ولا رادَّ لقضائه، ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ في الآخرة، بعد انقضاء هذه الدنيا.

وهل يظن أولئك أنهم أصحاب المكر والكيد والدهاء وحدهم؟ لا، فقبلهم كثير:

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

أي: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم السابقة، وكادوا، وعادوا دعوة الله فما فلحوا، وما نجحوا، فيما أرادوه، وهؤلاء كذلك لا يُفلحون مهما مكروا، ومُكْرُهم لا قيمة له، ولا أثر، ولا وزن، ﴿فَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿ٱلْمَكْرُ﴾ بهم، والكيد الحقيقي لهم ﴿جَمِيعًا﴾.

لأنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من خير أو شر، ولا يعلمون هم شيئًا.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ يومًا ما، حيث لا يفيد العلم صاحبه شيئًا ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ لمن العاقبة الحسنة، لهم أم للمؤمنين أتباع الرسل؟

ختامًا: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

يعني: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لك يا محمد صراحة ﴿لَسْتَ﴾ نبيًا ﴿مُرْسَلًا ۚ﴾ من عند الله، إنما أنت مدَّعٍ للنبوَّة والرسالة، ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: تكفيني شهادة الله لي أني رسول إليكم، وأنَّكم تكذِّبوني.

وأيضًا: شهادة ﴿مَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ من أهل الكتاب الذين قرؤوا في كتبهم أنِّي الرسول الخاتم، فأسلموا وآمنوا لي واتبعوني.

وبهذا تنتهي السورة الكريمة.

* * *